من أمراضنا الاجتماعية :

حب الظهور

للأستاذ عيسى متولى

من الأمراض الاجتماعية المتفشية بيننا داء سيئ الأثر ، هو حب الظهور ، إذ يولع الكثيرون بالظهور أمام الناس بمظهر أرفع من مظهرهم الحقيق ، يحدوهم إلى ذلك حبهم فى التفاخر ، ورغبتهم فى التعاظم ليصبحوا فى عداد من يشار اليهم بالبنان ، من ذوى الحيثية والمكانة ، فيتكلفون فى سبيل ذلك ما استطاعوا ، و يتفننون بختلف الطرق والوسائل لتحقيق أمنيتهم .

والواقع أن الظهور أمام الناس بمظهر غير المظهر الحقيق إنما هو ضرب من ضروب الخداع ، لأن هذا الرجل الذى يخرج على الناس بمظهر غير حقيقته إنما يريد أن يخدعهم وأن يصور لهم نفسه فى صورة تناقض الواقع وتخالف الحقيقة ، ليتصوروه عظيما ، فيبجلونه و ينزلونه من أنفسهم منزلة تليق بمظهر العظمة الذى يتظاهر به بينهم .

ومما لاشك فيه أن حب الظهور يكلف صاحبه الكثير ، لأنه يتكبد فى هذا السبيل ما لاطاقة له به ، فالموظف الذى لايتجاوز راتبه العشرة جنيهات إذا أرادالظهور بين أقرانه بمظهر كبار الموظفين ممن يزيد مرتبهم عن ضعف راتبه ، كلفه ذلك أن ينفق لا بالنسبة إلى مرتبه الصغير بل بالنسبة إلى مرتب من يستطيع أن يرتدى أفخر الثياب وأغلاها ، فهو مضطر إلى إنفاق جانب كبير من راتبه فى الملبس الذى يليق بمظهره ، وهكذا يكلفه حب الظهور الكثير من النفقات مما يرهق ميزانيته ، أو يضطره إلى الاستدانة وتحمل أعباء الديون حتى تثقل كاهله ، كما قال أحد حكماء العرب (حب الظهور يقصم الظهور) لأنه يحمل صاحبه مالا طاقة له بتحمله ، و يرغمه على الاضطلاع بأعباء جسيمة يعجز عن النهوض بها ، فيستهدف لأخطار كثيرة .

ومن أمثلة حب الظهور فى مجتمعنا مايعمد اليه الكثيرون من الاسراف فى إقامة أفراحهم ومآتمهم ، فيقيمون السرادقات الفسيحة ، و يتكبدون النفقات الكثيرة فى إقامة الأفراح والمآتم ، حبا فى الظهور أمام معارفهم وأصدقائهم بمظهر الغنى واليسار ، ولواضطرهم ذلك إلى الاستدانة أو بيع بعض منقولاتهم لجمع نفقات سرادق الفرح وما يتبعه من المصروفات كأن إقامة هذه الأفراح فرض واجب لا مفر من أدائه .

وكذلك فى المآتم نرى الكثيرين يسرفون اسرافا كبيرا فى إقامة السرادقات ، وقديكون للميت أبناء لم يترك لهم من حطام الدنيا شيئا ، ولكن أهله رغم كل ذلك لايتوانون عن اقامة

السرادق خشية عتاب الناس ولومهم .. فيصدق عليهم المثل السائر الذى يقول (موت وخراب ديار) !...

ولو تبصر هؤلاء المسرفون بعين الحقيقة لما اندفعوا الى شيء من ذلك ، ولوقفوا على أنفسهم مؤونة هذه التكاليف الباهظة التى لاتدعو اليها ضرورة أوحاجة واقتصدوا فى مآتمهم وأفراحهم على الضروريات ، واذا ترك الميت خيرا لأولاده أبقوه لهم درءا من غوائل الزمان ، ليقيم أودهم ، ويغنيهم عن استجداء الأكف ..

إن ديننا الحنيف دين يسر لاعسر ، ولم يرغما الشارع على أداء فريضة أو نسك لا نستطيع أداءه ، أو تحول ظروفنا دون القيام به ، فقال تعالى : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) وقال فى آية أخرى : (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) فلم نكلف أنفسنا مالا طاقة لها به ، بينما يسهل علينا الدين أمورنا ، ويسر لنا فرائضنا ، ويبيح لنا ماحرم علينا فى حالة الضرورة ، وما اضطرنا اليه .

ولا يفوتنى هنا أن أشير الى ظاهرة طيبة بدأت بعض الأسر عندنا تأخذ بها فى السنوات الأخيرة من الاقتصار فى أفراحهم على الخاصة من الأهل ، والاقتصار فى مآتمهم على تشييع الجنازة ، ونرجو أن تشيع هذه الظاهرة بيننا ، حتى تصبح تقليدا يعمل به الجميع .

ويتجلى حب الظهور فى مناسبات أخرى كثيرة ، فنلمسه فى هذه الحفلات والولائم التى تقام فى مناسبات سارة كحفلات ختان الأطفال .. فكثيرا ما تصادفنا فى الطريق مواكب تسبقها الطبول وتشترك فيها السيارات محملة بالزهور والرياحين ، ويتوسط الطفل المحتفل بختانه عربة مزينة بالورد والحرير ، كأنه فارس مغوار عاد من ميادين القتال مظفرا ، وقد عقدت على جبينه أكاليل النصر والفخار !...

وما زالت بعض الأسر عندنا تنقل (جهاز) العرس الى منزل العريس فى موكب حافل يتقدمه بعض الأطفال يحمل كل منهم مقعدا ، ثم عربات كثيرة رصت فوقها الوسائد والمنقولات ، ويطوف هذا الموكب شوارع المدينة تصحبه الموسيقى الى بيت العريس حيث ينتهى به المطاف ، وهذا ولا ريب مظهر من مظاهر حب الظهور ، وإلا فلم لا تنقل هذه المنقولات دون أن تعرض فى شوارع المدينة على هذا النحو المشين ؟!..

وقد يدفع حب الظهور بعض الناس الى اختلاق الأكاذيب ، فينسبون أنفسهم الى عائلات عريقة لا تربطهم بها صلة او وشيجة ، فإذا جلست الى أحد هؤلاء راح يقص عليك نسبه وحسبه ، وانتهز كل فرصة ليؤكد لك صلته الوثيقة بالعظماء وذوى الجاه ، ليلقى فى روعك أنه ذو حيثية لا يستهان بها ، ولا يتورع عن أن ينسب الى نفسه فضلا ليس من حقه ، حبا منه فى الظهور أمامك بمظهر العظمة ، وبسطة السلطان ، وان لم يكن عظيما ، ولا من ذوى السلطان !..

ويزين حب الظهور لبعض الناس المبالغة فى تصوير الحقائق مبالغة تخرج فى كثير من الحالات عن حدود الواقع ، فنجد متجرا صغيرا لا تزيد مساحته عن مترين وعلى واجهته

لوحة كتب عليها (المخازن التجارية الكبرى)... أو نجد مطعما بسيطا يسميه صاحبه (لوكاندة مصر الحديثة) ... أو نجد متجر أحذية متواضع يأبى صاحبه إلا أن يسميه (كوردونيرى العظماء) ... أو نجد صالونا حقيرا يحمل اسم (صالون البرلمان) ... وقد يكتب قصاب على واجهة متجره (جزارة الأمراء) ... وقد يكتب صاحب مقهى صغير على واجهة مقهاه (نادى الملوك) ! ...

هذه المبالغة فى تصوير الحقائق و إطلاق الأسماء ضرب من حب الظهور يتعدى حدود الواقع ، فكأننا نضع صورة صغيرة داخل إطار كبير فيفقد الإطار أناقته ، وتفقد الصورة جمالها لأنها لا تحاط بالاطار الذى يناسبها و يناسب جمالها ، أو كأننا نلبس طفلا رضيعا ثوبا فضفاضا لا يتفق وصغر جسمه ، فيبدو فيه غريبا ، يدعو منظره إلى السخرية والاستهزاء !.

قلت فى بدء مقالى إن حب الظهور لون من ألوان الخداع ، لأنه يظهر القبيح جميلا ، والوضيع رفيعا ، والحقير عظيما : فيجب ألا تخدعنا الظواهر أو يصرفنا بريقها عن تحرى حقيقة بواطنها ، ويجب ألا نصدر حكمنا على الناس بمجرد النظر إلى مظهرهم الخارجى ، فنجعل من هـذا المظهر مقياسا نزن به أقدارهم وشخصياتهم ، لأن المظاهر خداعة قد تخفى عن أبصارنا عيوبا كثيرة ، فكثيرا ما يتظاهر المحتالون بمظاهر الوجاهة والأناقة ، ليصرفوا الأذهان عن حقيقة شخصيتهم ، وتطالعنا الصحف بين حين وآخر بأنباء بعض المحتالات ، اللاتى يتسترن بالملابس الأنيقة ، ويدخلن المحلات التجارية الكبيرة يتظاهرن بالشراء ثم يسرقن ما يصل إلى أيديهن من المتجر ، كما نرى آخرين يتظاهرون بالتقوى والورع ليسلبوا الناس أموالهم .

و إذا اتخذنا من المظهر الخارجى ميزانا نزن به أقدار الناس فإننا ولا شك نخطئ التقدير ولا نضع الأمور فى نصابها ، فقد نحكم على شخص بالجهل والغباوة ، وهو فى حقيقته أذكى الأذكياء ... وقد نشهد لآخر بحدة الذكاء وهو فى حقيقته أغبى الأغبياء ... وقد نحكم على شخص يبدو أمامنا وجيه المظهر ، أنيق الثوب ، بعظمة الجاه وغزارة العلم ، وهو فى حقيقته على النقيض من ذلك كله ، وقد نستهين بشخص نراه لا يعنى بملبسه وهندامه ، ونحكم عليه حكما خاطئا .

هـذه المظاهر الكاذبة التى يتستر وراءها بعض الناس أشبه ما تكون بالعملة الزائفة ، فهى و إن كانت تتشكل بشكل العملة الحقيقية وتحمل معالمها ، إلا أنها لا تعادلها فى القيمة لأنها ليست من معدنها ، والعين المتيقظة لا تقبل العملة الزائفة ، ولا تجد صعوبة فى التفريق بين العملتين ، فتقبل الحقيقية منهما ، وترفض الزائفة ...

ومجتمعنا زاخر بألوان شتى من المعادن ، فيجب أن نكون دائما متيقظين وعلى حذر خشية أن تخدعنا المعادن الزائفة أو يغرر بنا بريقها فإن من الزجاج الرخيص أواعا يشبه بريقها بريق الماس ، ومن بعض المعادن ما يماثل الذهب فى لونه ، فلنحذر هذه المعادن الزائفة ، ولنقف من مروجيها موقف الحرص والحذر .

عيسى متولى